الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الحياة والموت فى الآية القرآنية ـ احترسوا من الأموات ـ الفصل الوريق

قرأت السؤال الموجّه إلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوى من أحد أفاضل القراء ، وقرأت إجابة حضرة الدكتور عباس محمود حسين ، وإجابة حضرة الدكتور حامد البدرى الفرابى ، ثم رأيت أن أشترك فى الإجابة ، لأن عندى آراء ترفع اللبس عن الآية القرآنية ، وتُلقى على الموضوع بوارق من الضياء

القرآن يقول « يُخرج الحىّ من الميت » والعِلم يقول إن الحىّ لا يخرج من الميت ، فكيف نوفق بين قول العلم وقول القرآن ؟

إن هذا الخاطر حيّر البرية منذ أزمان ، فقد قال أبو العلاء :

والذى حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد

وأسارع فأقرر أن مصدر الحيرة يرجع إلى عدم فهم المراد من الميت ، وعدم فهم المراد من الجماد

وبيان ذلك أن الموت فى الآية القرآنية ليس هو الموت الذى ينافى الحياة كل المنافاة ، وإنما هو الحالة التى لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء ، وكذلك يقال فى الجماد وهو الطين فى بيت العلاء ، فالطين ليس له فى الظاهر إحساس ولا نماء ، ولكن فيه حيوية تظهر فى قدرته على تحويل البذور إلى نبات ، فهو يحتضنها بحرارة تشبه احتضان الطير للبيض ، وتلك الحيوية متفرعة عن أسباب جوية ، ولكنها أصيلة فى الطين بدليل قدرته على اجتذاب وسائل الإنضاج ، فإنه لا يمكن تصور الفاعلية بدون تصور القابلية ، والقابلية استعداد يشهد بالحيوية

يُروَى أن أستاذنا الروحى فى التصوف وهو أبو الحسن الشاذلى قال : « نحن كالسُّلحفاة تُربّى أبناءها بالنظر » ، وهى عبارة فى غاية من الجمال

ومع أنى لم أفكر فى تحقيق هذه الظاهرة الطبيعية فقد سمعت أن السلحفاة تحتضن بيضها بالنظر فقط ، لأنها لا ترقد عليه وطريقتها فى الاحتضان أن تنظر إلى البيض باستقامة لا يمروها التفات إلى اليمين أو الشمال ، فإذا تعبت جاء الظليم فوقف مكانها وصوّب نظره إلى البيض بنفس الأسلوب ، لأنه إذا انحرف يمنة أو يسرة خفّت الحرارة فبرد البيض

وعن هذه الصورة نقلت بعض الكنائس وضع بيضة النعامة فى المحراب ، لتوحى إلى المصلين أن الصلاة لا تقبل إذا اعترى المصلى أى انحراف

فنظرة السلحفاة للتغذية ونظرة النعامة للاحتضان ، هاتان النظرتان فيهما حيوية لا يرتاب فيها مرتاب ، وهما تشبهان احتضان الطين لبذور الشجر والنبات

قلت مرة إنى أنكر أن يكون فى الوجود شىء ميت ، وهذا رأىٌ كوّنته بعد تجارب ، وهو فى يقينى صحيحٌ صحيح ، وعندى على صحته براهين

ما رأيكم فى الغبار الذى يثور فيسدّ مَسامّ الأجسام ويقذى العيون ؟

فى ذلك الغبار حيوية تسبب ذلك الإيذاء ، وإن سكت عنها الباحثون ، وبرهانى على هذا القول أن القابلية لا تتأثر بدون فاعلية ، ومعنى ذلك أن الغبار من الأحياء لأنه فعّال

يقول الدكتور حامد البدرى :

« الإنسان الحى يقتات من المواد النباتية وهى غير حية ، كما يقتات من لحوم الحيوانات بعد ذبحها وموتها وموت خلاياها موتاً كلياً »

وأنا لا أقول بهذا القول ، فالنباتات التى نأكلها حيةٌ وليست بميتة ، ولحوم الحيوانات لا تموت خلاياها موتاً كلياً بذبحها وموتها ، كما يقول هذا الطبيب ، وإنما هى لحوم حية وإن أنضجناها بالنار ، وإلا فكيف يمكن أن تمد على أجسامنا وعقولنا بالنشاط والأريحية ؟

إن حياة الدجاجة ، حياتها الطبيعية ، لا تقاس إلى حياتها المعنوية بعد أن تذبح وتؤكل ، فقد يكون آكلها قائداً فينتصر فى موقعة ، وقد يكون شاعراً فينظم قصيدة بليغة ، وقد يكون باحثاً فينشط ذهنه لحل أصعب المعضلات

هل تعرفون شيئاً عن طمى النيل ، وإلى ذلك الطمى يرجع خصب الأرض المصرية ؟

ذلك الطمى ليس غباراً تسفيه الرياح كما يقول جماعة من المهندسين ، وإنما هو محصولٌ حيوانيٌّ ونباتيٌّ تنظمه خلائق صغيرة لم يتحدث عنها العلم ولا التاريخ ، ولهذا السبب نجد في الفلاحين من يأكل طمى النيل بشهية ، لأنه في الواقع طعام لا تراب ، وهو لدسامته المُفرطة يؤذى الأمعاء ، ويصيب الفلاحين بمرض الزَّهَقان

والفلاح بطبعه يترك الماء المقطَّر ، ويُقبل على الماء المكدَّر لأن عكارة ماء النيل غذاء ، وهى السبب فيما نتمتع به من الخيرات . لا تنسوا أن تلك العكارة هى فى الأصل عناصر نباتية وحيوانية ، وإن سكت عنها الأطباء فى القديم والحديث

ثم ماذا ؟ ثم أمضى إلى نهاية الشوط فأقول :

ما الذى يوجب أن تكون الرسوم الهوامد من أسباب الإيحاء ، إلى الشعراء ؟

تذكروا الفاعلية والقابلية ، لتعرفوا أن الرسم الهامد لا يخلو من حياة ، وهل يوحى الأمواتُ إلا وهم فى بعض أحوالهم أحياء ؟

الناس فى جميع العهود يؤمنون بالعين ، أو يخافون العين ، وتلك أسطورة معروفة عند بنى إسرائيل ، وعنهم نقلها أكثر شعوب الشرق ، وما سميتها أسطورة إلا تلطفاً مع العلم الحديث ، وإلا فهى حقيقة من الحقائق ، فعينُ الحاسد يَصدُر عنها شعاعٌ محرِق ، شعاع يحسُّه الحاسد نفسه ، كما نصَّ بعض القدماء ، وهذا الشعاع يُسلِم الرجل إلى القبر ، والجمل إلى القِدر ، كما جاء فى بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول

قال يعقوب لبنيه عند دخولهم عاصمة مصر لذلك العهد : « يا بَنىَّ لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة » فما معنى هذه الوصية ؟ قال جماعة من المفسرين : إنه خاف عليهم عيون الحاسدين

ولنفرض أن الحسد خرافة فى خرافة ، وأن الجاهلين افتروا على النبى محمد والنبى يعقوب ، فكيف تفشَّت تلك الخرافة فى أكثر الشعوب ؟

هل تصدر الخرافات بدون أصل ؟

إن كان ذلك فحدثونى عن سر التوافق بين المصريين والفرنسيين فى هاتين العبارتين :

إن خاف المصرى الحسد قال : عين الحسود فيها عود . وإن خاف الفرنسى الحسد قال : إلمس الخشب Touchez le bois

فما معنى هذا التوافق العجيب فى الفكرة والصورة ؟

هل كان المصريون والفرنسيون يدركون قيمة الخشب فى دفع بأس الكهرباء ؟

هذه والله إحدى العجائب

المهم هو أن أقرر بصراحة أنْ ليس فى الوجود شىء ميت ، وأن القرآن حين قال : « يخرج الحىَّ من الميت » لم يكن يريد الموت المطلَق ، وإنما كان يريد الموت الاصطلاحى ، وهو الحالة التى لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء

وما هو الموت إذا أريدت حقيقةُ الموت ؟

إن كان الموت هو الفناء فلا فناء

قال القرآن المجيد : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

ومع هذا فالله لن يتركنا أبداً ، فالكتب السماوية صريحة فى أنه سيردنا إليه ، للثواب أو العقاب ، وعلى هذا لن يكون الموت غير غفوات قصار أو طوال

ثم ما ذا ؟ ثم أسأل عن التفسير الصوفى لعبارة « يخرج الحى من الميت » وهو تفسير سكت عنه أساتذتى فى التصوف ، ومن حقى أن أتأدب بأدبهم فأدير الحديث بالرمز والإيماء

الميت فى التصوف هو الإنسان الفانى ، والحى فى التصوف هو الإنسان الباقى ، ومن فضل الله على عباده الفانين ، أن يجعل منهم عباداً خالدين

فإن قيل : وكيف يخرج الله الميت من الحى على الطريقة الصوفية ؟ فأنا أجيب :

الحىّ فى هذه المرة هو الدنيوىّ المفتون ، وسينتقم الله منه فيجعله ميتاً بالعقاب يوم الحساب

أما بعد فهذه كلمات لم أُرد بها تفنيد ما قال ذانك الطبيبان الفاضلان ، وإنما أردت أن أقدم إلى قرائى حقائق تعتلج فى صدرى ، وهى حقائق متصلة بالشروح التى أيدتُ بها نظرية وحدة الوجود

لا موت ولا فناء

فاسمعوا كلامى واعتقدوا أن فى مقدور كل مخلوق أن يظفر بالخلود إن أراد

جاهدوا لتحيَوْا ، فلا حياة بدون جهاد

لا تكونوا صحراوات لا يترقرق فيها غير السراب ، وإن كان للصحراء حياة تتمثل فى قدرتها على تفويف ألوان السراب

كل شيء حيٌّ ، حتى الصحراء التى تبدع السراب ، فأين من سمع قبل اليوم أن الصحراء تؤيدغناها الموهوم بتلك الأحابيل ؟

وكيف يكون غنى الصحراء غِنًى موهوماً وهى لا تقلّ فى الثروة والمناعة عن البحر المحيط ؟

أنا لا أخاف عليكم الموت ولا الفناء ، لأنى أنكر الموت والفناء ، وإنما أدعوكم إلى التسلح بسلاح الفاعلية لا القابلية

لا تكونوا مقابر توحى فكرة الخوف والخذلان ، وكونوا آساداً توحى فكرة السيطرة والافتراس

القبر يُوحى والأسد يوحى ، فاختاروا الأفضل والأشرف من الوحيَيْن

لا موت فى الوجود ولا فناء

ولكن الميت قد يحيا ، والحيّ قد يموت

أموركم بأيديكم ، فاصنعوا بأنفسكم ومصايركم ما تريدون ، فقد بلغت فى نصحكم غاية ما أملك من عافية الروح وصراحة البيان

احترسوا من الأموات

وراء كل إنسان حيّ إنسان ميت يسوقه بعنف إلى مصاير فيها المقبول والمردود ، تبعاً لما يملك الميت من آراء وأهواء

ومن غرائب ما يقع فى القدوة الفكرية أن الناس فى الأغلب لا يحترمون رأى المفكر إلا بعد أن يموت . هل التفت الناس إلى آراء الشيخ محمد عبده إلا بعد أن مات ؟

إن الشيخ عبده كان يتندر بمعاصريه فيقول إنهم لا يحترمون غير الرأى المنصوص عليه فى كتاب قديم بعُد عهد صاحبه بالحياة والأحياء

وغفلة بنى آدم من هذه الناحية أوضح من أن تحتاج إلى بيان ، فقد أشاع أبو نواس وأصحابه أن الخمر لا تجود إلا إن قدُم عهدها بالوجود ، ولهذا نجد تجار الخمر يعفّرون الزجاجة بالتراب ليوهموا الغافلين أن جوهرها عتيق ، كما كنا نرى فى بعض مخازن الخمور بمدينة باريس

والقديم فى الأدب هو الأصل ، فقد مرت أزمان والناس يعتقدون أن أشعار الجاهليين أقوى وأبرع من أشعار الأمويين والعباسيين

القدم فى عرف بنى آدم يمنح صاحبه قدسية تفوق الوصف ، وهو شارة من شارات التضج العبقرى فى الأشخاص وفى المعانى بسبب ما درج عليه الناس من احترام الأموات

أى العبارتين أقوى : عبارة قال القدماء ، أو عبارة قال المعاصرون ؟

وازنوا بين هاتين العبارتين من الوجهة النفسية لتصدقونى

وأى الحفظين أنفع فى نظر المتأدبين : حفظ ديوان المتنبى ، أم حفظ ديوان شوقى ؟

إن الأموات يسيطرون على الجماهير سيطرة روحية وعقلية لا يرتاب فيها إنسان ، ولو كان من أكابر الحكماء

فكيف ننكر أن يخرج الحيّ من الميت ، وهذا هو الحال فى تصورات الأفهام والعقول ؟

للموت قدسية رائعة ، فهو يرفع الأموات إلى آفاق لم تخطر لهم فى بال ، ألم تسمعوا أن كلمة الموت أصبحت مرادفة لكلمة الخلود ؟

تبارك من يخرج الحى من الميت ، وعفا عن صاحب ذلك الاعتراض !

الغصن الوريق

هذا الغصن هو مصدر الوحى ، وهو أنضر فنن من أفنان الجمال

جماله عندى ليس جمال الشراب المعتق ، وإنما هو جمال الماء الصابح فى بحر سنتريس

أهفو إليه وهو سرحة ناشئة لم يغرّد فوقها غير شعرى وخيالى ، وأشتاق رؤيته لأحميه من رقة النسائم فى لطائف الآصال

فوق أوراقك أيها الغصن الوريق تراق دموع الهوى ، وهى أرق من قطرات الندى ، ومن أجل الوفاء لهواك يفتضح من يكره الافتضاح

وهل عرف أحد هويتك ، أيها الغصن الوريق ؟

أنت نفسك لا تعرف أنك المعنىّ بما يهتف به روحى فى رسائلى وأشعارى ، يا أجمل جاهل فى هذا الوجود

هل تعرف أيها الغصن رفقى بك فى القريب من أيامك ولياليك ؟

كان بيدى أن أصيّرك سرحةً لا يترنم فوقها بلبل ، ولا